مورات ملك نابولي

ما أشد اهتمام الناس في سائر أقطار الأرض بنابوليون بونابارت وأخباره وما أشد شوقهم الى مطالعة ما كتب ويكتب عنه . وقد أحصى بعضهم المؤلفات التي وضعت عن نابليون فزادت على الخمسمائة

وردتنا عدة كتب روسية حديثة طبعت في برلين ومن بينها كتاب نقل الى اللغة الروسية عن الفرنسية لمؤلفه « أرتور ليفي » بحث فيه عن حياة نابليون وذكر كثيراً من أخباره الشيقة التي طالعناها بشغف ولذة وقد رأينا أن ننقل لقرائنا عنه هذا الفصل الممتع الشيق الذي عنونا به مقالنا هذا

كان مورات ابن صاحب فندق في باستيد الواقعة بجوار « كاهورا » . وعندما زحف نابليون عام ١٧٩٦ لمحاربة ايطاليا كان مورات جندياً في تلك الحملة . دخل ذات يوم على نابليون القائد الحديث وقال له : ليس لك يا سيدي القائد ياور واني أعرض عليك نفسي لأتبعك وأكون بخدمتك فأعجب بونابارت بجرأته وطول قامته ولبى طلبه وعينه ياوراً له ثم رقاه الى رتبة ضابط فقائد واشترك في الحملة الفرنسية على مصر ثم تزوج بكارولينا بونابارت شقيقة نابليون واحتفل بزواجه بها احتفال بسيط في لكسمبرج . ولم يفكر اذ ذاك القنصل الاول بأن أعمال أسرته لها علاقة شديدة بالبلاد وكان اذ ذاك فقيراً فقدم لشقيقته بائنة (دوطة) قدرها ثلاثون ألف فرنك فقط . ورأى ان الواجب يقضي عليه بأن يقدم لها هدية في يوم زفافها ولكنه لخلو يديه وجيوبه من المال نزع من عنق زوجته عقدها الدري وقدمه هدية لشقيقته

ولما تزوجت كارلونيا أخذت تهتم بمصالح زوجها فجعلت تطالب من أخيها الطلب تلو الطلب حتى قال عنها : «اني في مناقشتي لمدام مورات كأني داخل معركة فاصلة » وكان يقاومها ويرفض طلباتها على عيون الناس ولكن الواقع ينقض ذلك يدلنا عليه تقدم مورات السريع وارتقاؤه من رتبة الى رتبة ومن وظيفة الى أخرى : فمن حاكم باريس الى مارشال فرنسا الى لقب برنس الى ادميرال وأخيراً في عام ١٨٠١ ارتقى

الى عرش نابولي وأصبح ملكا عليها . ولما بلغ الزوجان أوج المجد والعظمة تاها عجباً وفخاراً وذهبا في الكبرياء كل مذهب

فكان مورات يتأنق في لباسه حتى كان يرتدي أفخر الحلل ويطرز سرواله (بنطلونه) بخيوط الذهب الخالص ويتمنطق بمنطقة من الذهب واتخذ حذاءه من الجلد الأصفر وزين قبعته بشرائط الذهب وريش الطاووس الطويل واذا سار يسير بعظمة مختالا متعاظماً واذا ركب امتطى جواداً مطهماً عليه سرج مطرز بالذهب ولجامه من الذهب الخالص الى مثل ذلك كان يقوده عقله المحدود . واذا سار الى معارك القتال كان الخدم يحملون معهم صناديق ملأى بالحلل الفاخرة وأدوات الزينة الباهرة التي كان يوصي عليها في باريس .

قالت أميرة أبرانتيش انه في خلال أربعة أشهر أرسل أحد مخازن باريس الكبرى ريشاً مختلفاً لمورات بمبلغ ٢٧ ألف فرنك . وقال أحد المؤرخين ان مورات كان لا يهمه غير التأنق بملابسه وانفاق النفقات الطائلة عليها وكان دائماً أبداً كأنه في حفلات المساخر مع ان رجلا عسكرياً مثله كان يجب عليه ان يراعي الاقتصاد في نفقاته ويرتدي الأردية اللائقة بصهر بونابرت

وقال تاليران عن كارولينا زوجة مورات : انها كانت ترتدي أفخر الحلل وأغلاها ثمناً واذا سارت يحدق بها عدد من الوصيفات كأنها ملكة متوجة وكانت تقول لمن يحدق بها : لماذا لا أكون امبراطورة فرنسا

وقد قادتها هذه التخيلات الى الفرض بأن اشتراك الامبراطور شقيقها في المعارك الحربية ربما أفضى الى خلو عرش فرنسا وقد حامت افكارها حول هذه النقطة حتى فرضت : جواز قتل الامبراطور في احدى المعارك واذ ذاك تحدث حوادث خطيرة ويخلو لها الجو لتحقيق تخيلاتها .

وقادتها مكارم شقيقها وعطفه عليها الى الاقامة في قصر الاليزه في باريس وهنا تجسمت في مخيلتها تلك الاوهام والاماني الكاذبة ووجدت في يدها سلاحاً حاداً هو جمالها الفتان فسلت سيف لحاظها للوصول الى غاياتها الدنيئة فاستولت على فؤاد حاكم باريس « جونو » الذي كان له مقام سام في باريس وفرنسا وكان عمره اذ

ذاك ٣٦ سنة . هام بها هياماً شديداً ولكنه لم يلحظ غايتها ولم يدرك دسائسها بل استسلم اليها . ولكن هذا الحب وأسبابه لم يبق سراً فقال جيراردين عنه انه شاع بين رجال البلاط ووصيفاته ثم تحدثت عنه جميع أندية باريس

ولم تقف تخيلاتها عند هذا الحد بل لجأت الى ايجاد علاقات صداقة متينة مع سفراء الدول ولا سيما مع الأمير ميتيرنيخ وقالت بهذا الصدد مدام دي ريميوزا : ان الأمير ميتيرنيخ كان يجد له مكاناً رحباً في قلوب السيدات وقد استطاع ان يجتذب اليه قلب كارولينا وكان له الفضل الأوفر في اطالة مدة وجود زوجها مورات على عرش نابولي

ولما عاد الأمبراطور الى باريس عرف تلك الرواية الغرامية التي اشترك في تمثيلها حاكم باريس جونو وشقيقته ووقف على أسبابها والاغراض التي ترمي اليها فوجم لدى سماعه تلك الرواية ولكنه لم يلجأ الى الشدة بل اكتفى بتفريق الحبيبين .

قلنا في ما تقدم ان جونو لم يفته اسباب حب كارولينا له ولم يدر بخلده ما كانت ترمي اليه من الاغراض السافلة بل ظن انها حبته لجماله وظرفه ولذلك كان دهشه شديداً عندما صدر له أمر الامبراطور بالسفر الى ليشبونه بصفة سفير وقد رأى في ذلك غضب سيده عليه فقال له : « وهكذا انك تنفيني من فرنسا وأية جريمة ارتكبتها لتتصرف معي مثل هذا التصرف القاسي » فتأثر نابليون لحزن صديق صباه وقال له : « انك لم ترتكب جريمة ولكنك ارتكبت غلطة ومن الواجب ان تبتعد عن باريس مدة من الزمن حتى تخمد تلك الاشاعات المنتشرة عن شقيقتي وعنك وثق يا صديقي القديم بأن ابعادك لحفظ شرفك » .

ولم يستعمل الامبراطور الشدة مع شقيقته بل تظاهر أمامها بأنه لا يعلم شيئاً عن دسائسها السياسية وأميالها المنحرفة وفي العام التالي لهذه الحوادث عين مورات ملكاً على نابولي وبذلك تتحقق آمال شقيقته بجلوسها على عرش مملكة واطمأنت أفكاره بعد هذا من جهة دسائس شقيقته السياسية

تمتع الزوجان ردحاً من الزمن بعظمة الملك وجلاله واغتبطا اغتباطاً عظيماً ولكن التاريخ العادل سجل لهما على صفحاته بأحرف لا تمحى « الخيانة » لمن أحسن اليهما

ويكفيهما ذلك عقاباً ولو فكرا بحكم التاريخ لما بقي لهما أثر من تلك السعادة المجرمة الكاذبة

كنا نتصف كارولينا لو انها قاومت زوجها في دسائسه ضد شقيقها ولكننا لم نسمع منها كلمة احتجاج على تصرفاته وسكوتها دليل على رضاها عن اعماله وروايتها الفرامية دليل آخر على خيانتها لشقيقها وأجمع عدة مؤرخين على الحكم عليها بأنها كانت تميل الى الحكم المطلق والجلوس على عرش الامبراطورية

وفي عام ١٨١٢ ذلك العام المشهور في التاريخ الذي غزا فيه نابليون روسيا وفر راجعاً مع فلول جنوده بعد حريق موسكو وسط الثلوج والجليد وبعد ان تحملوا أشد المشقات حتى شهد العالم لاولئك الجنود بالبسالة الخارقة والجلد والصبر على المكاره ومقاومة الطبيعة في خلال ذلك الفرار علم نابليون بخيانة « ماليه » فأسرع بالعودة الى باريس لكي يوطد عرش حكومته ويجمع جيشاً جديداً يضعه في وجه الاعداء الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على فرنسا . وفي ٥ دسمبر من عام ١٨١٢ عهد نابليون بقيادة فلول الجيش الى مورات لانه رأى ان خير عضد له في هذه الشدة هو صهره

ولكن مورات الذي ما كان يهمه غير نفسه وراحته ترك تلك القيادة وسافر في ١٦ يناير سنة ١٨١٣ الى نابولي ليحافظ فيها على عرشه الذي أصبح مهدداً بالزوال

فتألم نابليون لتصرف صهره المعيب وفي ٢٣ يناير كتب الى بيحارنيه الذي عهد اليه قيادة الجيش ما يأتي : « اني أجد تصرف ملك نابولي خارجاً عن حد المعقول والواجب يقضي علي بالقبض عليه عبرة وعظة لغيره . ان مورات شجاع في المعارك ولكنه خال من الشجاعة الادبية » وفي اليوم التالي كتب لشقيقته كارولينا يقول : « ترك الملك الجيش في ١٦ الشهر . ان زوجك شجاع في ميدان القتال ولكنه أجبن من المرأة أو الراهب عندما لا يرى أمامه عدواً . انه لتنقصه الشجاعة الادبية »

ولما عاد مورات الى نابولي وقع بين ايدي الرجال الذين اصبحت في يدهم دفة السياسة وشهد فوشيه وكولينكور انه سلم نفسه لتصرف النمسا كما انه لم يضع الفرصة في توثيق العلاقة الودية بينه وبين اللورد بينتينك قائد الجيوش الانجليزية في صقلية

وفي ذلك الوقت الذي كان عرش نابولي يحاول الخيانة ودس الدسائس انتصر

نابوليون انتصاراً مبيناً في فوتسين وباوتسين على الجنود المتحدة . ولما رأى مورات ذلك اضطرب جزعاً وقال : هذا أمر مدهش يحير الافكار : ان نابليون مع جيش صغير غير مسلح كما يجب استطاع الانتصار على جيوش الدول المتحدة . والمصلحة تقضي عليه بالرجوع الى خدمته فعهد الى زوجته أن تتوسط له لدى شقيقها ليعفو عنه ويرده الى خدمته فلبى طلبها وأعاد مورات الى رئاسة الفرسان لدى عقد الصلح في درسدن

ان تجديد المعارك الحربية أفضى الى كسر الجنود الفرنسية وانقضت آخر ضربة على رؤوسهم في ليبتيسج يوم ١٨ اكتوبر من عام ١٨١٣ . ولم يضع مورات دقيقة من الوقت للانضمام الى الحلفاء وفي ليلة ٢٢ أو ٢٣ اكتوبر خرج مساء من خيمة نابليون وقصد صفوف الاعداء الامامية حيث اجتمع سراً بالقائد النمسوي الجنرال مير الذي تعهد له باسم الحلفاء ببقاء عرش نابولي له بشرط ان لا يساعد فرنسا لا بالمال ولا بالرجال وانه يجب عليه ان يترك في الحال قيادة الجيش وخدمة نابليون

وثق مورات بهذا الوعد ولذا فانه في اليوم التالي ترك نابليون في ايرفورت بدعوى ضرورة عودته الى نابولي للمحافظة على عرشه . وبما ان نابوليون لم يقف على خيانته في الليلة السابقة صدقه وقال البارون فاين بهذا الصدد ما يأتي : « ان الامبراطور ودع رفيقه في الجندية وداعاً مؤثراً وقبله قبل مغادرته عدة مرار

ولبث نابوليون يثق بمورات يدلنا على ذلك رسالته الآتية الى بيجارنية التي كتب فيها ما يأتي : كتب لي ملك نابولي يقول : « انه قريباً سيكون في بولون مع ثلاثين ألف مقاتل وهذا أراح فكري ولم أعد اخشى على ايطاليا » . ولكن ثقة نابوليون هذه زالت سريعاً لان مورات زحف على رأس ثلاثين ألف جندي لمحاربة فرنسا . . . . ولما وقف على خيانته كتب نابليون الى فوشيه رسالة قال فيها : « اعظم ما اتمناه ان اعيش فترة من الزمان لانتقم لنفسي ولفرنسا على هذه الخيانة الشنعاء »

ولكن مورات نال جزاءه ازاء خيانته وطنه وسيده فقد خلعوه عن عرش نابولي في ١٩ مايو سنة ١٨١٥ وأعدموه رمياً بالرصاص في ١٣ اكتوبر من تلك السنة بالقرب من بيتسيزو وهكذا فانه على الباغي تدور الدوائر .